اتجاه الأدب الحديث
إلى الطبيعة

للأستاذ أنيس المقدسي

الطبيعة

إذا كان الأدب القروي يعنى خاصة بحياة الفلاح والبيئة التي يعيش فيها فإن أدب الطبيعة يعنى بتصوير المشاهد الطبيعية والتعبير عما تثيره في نفس الإنسان . وليس وصف الطبيعة جديداً في الأدب العربي فقد عرفته جميع العصور الأدبية واشتهر به كثيرون من شعرائها

والوصف الطبيعي القديم وثيق الاتصال بالبيئة البدوية من قفار ورياح وأنواء ونبات وحيوان وما إلى ذلك . وهو عادة دقيق يميل إلى شرح الجزئيات؛ فإذا أراد الشاعر وصف حيوان كالناقة مثلا أو كالحمار الوحشي صور لك أعضاءه وألوانه وأوقفك على جميع حركاته وسكناته

ومن خصائص الوصف البدوي الصدق وعدم التصنع، فهو عموماً عرض واقعي لا يعمد إلى الزخرف اللفظي والتأنق الصناعي الذي نراه شائعا في عصور الحضارة . يرى الشاعر شيئاً فيعرضه كما هو بلغة قد نراها اليوم غريبة ولكنها جاوبة مع سجيته منبعثة عن طبيعة بيئته

وقد تطورت البيئة العربية بعد استقرار الملك العربي في الشام والعراق ومصر والأندلس فتطور معها الشعر الوصفي ، وهكذا انصرف عن الصحراء وأحوالها إلى الحواضر الجديدة وما تحويه من بساتين ومتنزهات وفواكه ورياحين ومجاري مياه وما إلى ذلك من ظواهر الحياة المدنية . ولا بد لنا هنا من التنبيه إلى فرق واضح بين أسلوب الوصف البدوي القديم وهذا الوصف الحضري المولد . ففي الأول كما ذكرنا آنفا يغلب الصدق والبساطة في التصوير . وأما الثاني فتبرز فيه الصناعة الفنية التي تتحرى إلباس الموصوف برداً قشيباً من الخيال . ولقد تمادى المولدون في حرصهم على ابتداع المعاني البيانية حتى طغت الصناعة عندهم على صدق العاطفة فأصبحت الطبيعة في كثير من الأحيان وسيلة لإظهار براعتهم الفنية ومقدرتهم على التوليد

على أننا إذا أنعمنا النظر في وصف القدماء عموماً للطبيعة وقابلناه بما نستجيد في أدبنا الحديث من ذلك وجدنا من الفرق بينهما ما لا نجده بين الشعر القديم أو الجاهلي والشعر المولد في العهد العباسي والأندلسي . فالطبيعة في الشعر القديم لم تتخذ موضوعاً خاصا وإنما كان الشعر يعرض لها في سياق غرض آخر كالغزل أو المديح أو الفخر ، وكان يكتفي بأشكالها الخارجية لا يتجاوز الأفق الحسي المشاهد إلى ما هو أبعد وأعمق . وبكلمة أخرى لم ير في الظواهر الطبيعية ما يحمله على التأمل العميق وما يوحي إليه المعاني الخالدة والأفكار السامية، ولم يتغير الموقف في الشعر المولد تغيراً يصح أن يسمى اتجاها عاما ، فظلت الطبيعة عند المولدين وسيلة لا غاية ومعرضاً لمشاهد جميلة لا مصدراً لإيحاءات روحية . أما الأدب الحديث فلم يقف عند حد المشاهد التي تبهج النفس بل اتجه اتجاها عاما إلى ما للطبيعة من وجود معنوي بلذ للخيال الجولان فيه ويروق للفكر أن يسمو إليه

ولهذا النظر الحديث إلى الطبيعة خصائص نحاول شرحها فيما يلي :

قد يقال إن الوصف الحديث للطبيعة يمتاز بملاحظة ما لا يؤبه له عادة كانحناء السنبلة وتفتح البراعم وتبعثر أوراق الخريف وربوض البقرة تحت الشجرة واختباء الفراخ تحت جناحي أمها وتجاوب الأجراس في الوادي ولون العشب القاوي وغير ذلك من مشاهد طبيعية متواضعة ، وإنه يرتاح إلى الطبيعة الساذجة (البرية) دون المصطنعة المتنمقة . فهو يؤثر الغاب على البستان ، وشواهق الصخور على أسوار الحصون ، ويحيرات الجبال على برك القصور . ورمال الشواطئ والصحاري على الساحات المعبدة في المدن أو النوادي ، والمجاري الطبيعية المتدفقة بين السهول والهضاب على الترع المحفورة لري الحقول والمزارع . بل إنه ليرى روعة خلابة في ما كان يهول القدماء كصخب العواصف وطغيان السهول وانقضاض الشلالات ووصف الرعود وتجهم الفدافد ووحشة الدياجي وتلاطم اللجج وما أشبه . وفي هذا القول شيء كثير من الصحة، على أن ذلك عند التحقيق ليس

الفارق الرئيسي الذي يميز أدب الطبيعة في هذا العصر عنه في العصور السالفة، وإنما عبرنا بما قدمت الإشارة إليه من أن الأدب الحديث ينظر إلى الطبيعة نظراً معنوياً يتجاوز أفق المشاهدات

ومما لا شك فيه أن التصور المعنوي الذي تثيره المشاهد الطبيعية هو أقوى وأعم في أدبنا الحديث منه في أي عصر من عصورنا الماضية . ولهذا التصور أو النظر المعنوي نزعات نجملها في النزعتين التاليتين :

النزعة الحيوية :

وهي اعتبار الطبيعة ذات حياة وروح يمكن مخاطبتها ومناجاتها ومبادلتها الأفكار والعواطف

وليس من الصواب القول أن الأدب القديم خلو من مثل هذا النظر أو الشعور ، فقد طالما وقف القدماء على الطلول فبثوا لها أشواقهم وسألوها عن أحبابهم، وإنما فعلوا ذلك في الأغلب تمهيداً لبعض أغراضهم وجرياً على انتهاج السنة الشعرية التي كانت تقتضي الابتداء بالغزل . ومنهم من أنطق الطبيعة ونسب إليها التأمل والتفكير كما فعل ابن خفاجة الأندلسي في قصيدة يصف جبلا فيقول فيه :

وقور على ظهر الفلاة كأنه   طوال الليالي مفكر في العواقب

على أننا نعيد القول أن ما نجده من ذلك فيما مضى لم يبلغ أن يكون اتجاها عاما أو بابا مستقلا يلجه الأدباء ليتصلوا بالطبيعة فيسجدوا في هيكلها ويحملوا إلينا منه ما توحيه من جمالها وأسرارها ، أو على الأقل لم يبلغوا في هذا السبيل شأن زملائهم في القرن العشرين

إن الطبيعة في الأدب الحديث « حيوية » عاقلة تحس بضربات فؤادها ويسمع رجع إنشادها ويلذ له التحدث إلى أنهارها وغاباتها وجبالها ووهادها . ويمثل لك ذلك جبران جبران إذ يقف أمام « الأرض » مقابلا محاسنها بقبائح الإنسان فيقول « ما أجملك أيتها الأرض وما أبهاك . ما أتم امتثالك للنور وأنبل خضوعك للشمس . ما أظرفك متشحة بالظل وما أملح وجهك مقنعا بالدجى . ما أكرمك أيتها الأرض وما أطول أناتك ! نحن نضج وأنت تضحكين . نحن نذنب وأنت تكفرين . نحن نجدف وأنت تباركين . نحن نتجس وأنت تقدسين . نحن نكلم صدرك بالسيوف والرماح وأنت تغمرين كلا منا بالزيت والبلسم . نحن نستودعك الجيف وأنت تملأين بيادرنا بالأغمار ومعاصرنا بالعناقيد . نحن نتناول عناصرك لنصنع منها المدافع والقذائف وأنت تتناولين عناصرنا وتكونين منها الورود والزنابق ! »

واشكر الله الجر قصيدة في شلال في البرازيل يدعى « تيجوكا » وهي أيضاً من باب الوصف التأملي الذي تشعر فيه بحيوية الطبيعة . ومن أدوارها :

صلت بمائك عيني وعدت فأبصرت ما الناس لا تبصر
فبالله قل لي إلام تظل كذلك تجتاحك الأعصر
وأنت تكر كرور الزمان   فلا تستقر ولا تفتر
وهذا الوجود كما كان قبل شعوب تجيء وأخرى تروح
ودنيا تضج بسكانها   فهذا يغني وهذا ينوح
وذلك مستسلم للقدر

وكثيرة هي وقفات الأدب الحديث على الطبيعة اللاحية من جبال وأودية وأنهار وبحار ونجوم ورياح وبحار حتى ليتعذر حصرها

وكما شغف الأدب الحديث بالطبيعة اللاحية فأحياها وجعلها ذات شعور وإدراك ، ونظر مستوحياً منها الأفكار والخواطر والعبر ، شغف أيضاً بالطبيعة الحية من نبات وحيوان فجعلها موضعاً لتخيلاته وتأملاته ، ووسيلة للتحدث عما يتجلى له في حياته

ففي عالم النبات مثلا يقص علينا جبران جبران حديث البنفسجة التي كانت تطمع أن تكون وردة

وممن استخلص من البنفسجة موضوعاً إنسانيا خليل شيبوب إذ وصف جمالها وتواضعها فقال

قد التحفت أوراقها وتطامنت   على نفسها في رقة وتواضع
مكحلة الأجفان يقضي حياؤها   عليها بإغضاء اللحاظ الخواشع
وهل كبرياء الروح تعدل نظرة   للمومة في ثوبها المتواضع

وفي غابة من غابات البرازيل يمر الشاعر القروي مرة فيرى دوحة عظيمة قد طرحتها على الأرض يد الإنسان فيحدثنا حديث

تلك « الدوحة الساقطة » وشكواها من جور الإنسان . وفى هذا الحديث تذكرنا الشجرة شيئاً عن حياتها ونشأتها وكيف نمت حتى أصبحت كثيرة الأغصان وارفة الظلال تأوى إليها الطيور ويقصد ظلالها طلاب الراحة . ثم تصف عالم النبات وأنه هو موطن المساواة والخير، لا عالم الإنسان الموبوء بالطمع والفساد، القائم على التعدى والتدمير . وبعد أن تنعى نفسها إلى أشجار الغاب يتناول الشاعر الحديث مستطرداً إلى وصف الدوحات البشرية (أى النوابغ) وما يصيبهم بين الناس من هوان وعناء .

ومن الشعر التأملى المستوحى من عالم النبات قصيدة « الورقة المرتعشة » لرشيد أيوب .. يرى الشاعر ورقة من أوراق الخريف فتثير فيه — وقد دنت شمسه المغيب — خواطر وذكريات ويخاطبها بقوله :

أبنت الربيع استريحى غداً   فكل الهناء لمن لا يعى
قضيت الربيع وكل الحيا   ة زمان الربيع فلا تجزعى
فماذا أقول أنا فى الشتاء   وصوت العواصف فى مسمعى
أبيت الليالى أرعى النجوم   وإن نمت نامت همومى معى

* * *

والشعر الحديث المستوحى من الطبيعة النباتية شعر كثير ومثله المستوحى من الطبيعة الحيوانية عالم الطيور والحشرات وحيوانات البر والبحر . وإليك منه بعض الأمثلة :

ينظر الشاعر المصرى محمود حسن إسماعيل إلى الغراب وهو واقف على غصن شجرة من أشجار النخيل ، فيتصوره « راهباً » كبير السن واسع الاختبار وعوضاً من أن يتطير منه كما يفعلون عادة يتلطف فى الاقتراب إليه ثم يلقى عليه أسئلة عما لم يستطع فهمه من أسرار الحياة راجياً منه أن يجلو له أسرارها ويكشف أستارها . وهذه الأسئلة ليست فى الحقيقة إلا ما يساور نفس السائل لدى تأمله فى حياة الناس وأحوالهم . وقد اتخذ الغراب وسيلة للتحدث عنها والتعبير عن رأيه فيها

وفى الخريف يرى إيليا أبو ماضى فراشة وقد دنا أجلها فيجعلها موضوعاً لقصيدته « الفراشة المحتضرة » ومن هذه القصيدة قوله مخاطباً تلك الفراشة :

فالزهر فى الحقل أشلاء مبعثرة   والطير — لا طائر إلا جناحاك
يا روضة فى سماء الأرض طائرة   وطائراً كالأقاحى ذا شذاً زاك
مضى مع الصيف عهد كنت لاهية   على بساط من الأحلام ضحاك
تمسين عند مجارى الماء نائمة   والأزاهر والأعشاب مفداك
يا نغمة تتلاشى كلما بعدت   إن غبت عن مسمعى ما غاب معناك

ويسمع أحمد رامى طائراً يغرد تغريداً شجياً وهو يتنقل من غصن إلى غصن فيغبطه لأنه بعيد عن الناس ويقول له :

واصدح فصوتك فى الفؤاد صدى   للغابر المدفون من زمنى
لك أنة فى الليل خافتة   تسرى إلى قلبى بلا أذن
هبنى جناحك كى أطير به   وأحط فوق شواهق القنن
وأطل فوق الكون مبتهجاً   بجماله المتناثر الحسن

ومن هذا القبيل موشح للشاعر العراقى محمود الحبوبى استوحاه من تغريد طائر على شجرة فعداه ذلك إلى وصف الحياة والناس ، متمنيا لو كان للبشر نصيب من حياة الطائر الرخية الوديعة لعلهم يرجعون إلى صوابهم وينبذون ما أفسد عليهم سعادتهم

ولو أردنا أن نعدد الأمثلة على ما للطبيعة الحية من أثر فى أدبنا الحديث لطال بنا سفر الكلام

النزعة التاريخية :

ولم يكتف أدباء هذا العهد بمناجاة الطبيعة وبثها ما يشعرون به ، بل كثيراً ما تراهم ينظرون من خلالها إلى التاريخ حيث يتجلى لهم جلال القدم وحوادث الزمان . والذى يلاحظ أن هذه النزعة تكاد تكون مفقودة فى أدبنا الماضى . ومن أمثلتها قصيدة أحمد شوقى « أيها النيل » ومطلعها :

من أى عهد فى القرى تتدفق   وبأى كف فى المدائن تغدق
ومن السماء نزلت أم فجرت من   عليا الجنان جداولا تترقرق

وفى هذه الوقفة التاريخية يصف النيل مسهباً ذاكراً ما قام على ضفافه من ممالك وأديان، ومن مشى عليها من أنبياء وفاتحين، وأنه كان مهد الحضارة والعلم وموئل الحكمة ومصدر النور

ومن الأنهار الشرقية الموحية لذكريات التاريخية : الفرات ودجلة والأردن والعاصى وبردى واليرموك ونهر الكلب قرب بيروت وسواها . ومن البحيرات طبريا والبحر الميت